الدرس الأول: مفهوم التداولية وتطورها في علوم اللسان

أوّلا:تعريف التداولية

1-لـــــــــغة

تعريفها:

جاء في لسان العرب لابن منظور:" تداولنا الأمر: أخذناه بالدُّل، وقالوا: دواليك أي مداولة على الأمر؛ ودالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس،."[1]

وجاء في مختار الصحاح للرازي(ت666هـ):" والإدالة الغلبة يقال اللهم أدلني على فلان وانصرني عليه، ودالت الأيام أي دارت والله يداولها بين الناس وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة" [2] .

وفي أساس البلاغة للزمخشري(ت538هـ)

دول:دالت له الدولة،ودالت الأيام كذلك، استدلت من فلان لأدل منه واستدل الأيام: استعطفها." [3]

2-اصطلاحـــــا

يعودُ الاستعمالُ الحديثُ للتَّداوليَّةِ (pragmatics) **للأمريكي شال موريس Charles)**عام (1938م) في كتابه «**أسس نظرية العلامات**»، ففي تعريفه **للتداولية** يقول:«التداوليةُ جزءٌ من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلاماتِ ومُستعملي هذه العلاماتِ"[4].

ويعرِّفُها آن ماري دبير وفرانسوا ريكانتي بقولهما:«التَّداوليَّةُ هي دراسةُ استعمالِ اللُّغةِ في الخِطابِ، شاهدةٌ في ذلك على مقدرتها الخطابيَّةِ[5].

وتُعرِّفها "فرانسوا أرمينغو" بـــ:«أنَّها تعني دراسةَ استعمالِ اللُّغةِ في الخِطَابِ، شاهدةٌ في ذلك على مقدرتها الخطابيَّةِ»[7]. **فالتَّداوليَّةُ عندها**: هي الدِّراسةُ التي تتناولُ اللُّغةَ من جِهَةِ استعمالنا لا من جهة معناها أو مبناها.

التداولية:" إنَّنا نعني بالتَّداوليَّةِ علمُ علاقةِ العلامةِ بمُؤوّليها، فإنَّه من التَّمييزِ الدَّقيقِ للتَّداوليَّةِ أنْ نقولَ: إنَّها تتعاملُ مع الجوانِبِ الحيويَّةِ لعلمِ العلامَاتِ، وهذا يعني كُلَّ الظَّواهِرِ النَّفسيَّةِ والاجتماعيَّةِ التي تظهرُ في توظيفِ العلامات"[8]

عرّف صلاح فضل التداوليَّةَ على أنَّها «الفرعُ العلميُّ المتكوّنُ من مجموعةِ العلومِ اللُّغويَّةِ التي تختصُّ بتحليلِ عمليَّاتِ الكلامِ بصفةٍ خاصَّةٍ، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التَّواصلِ بشكلٍ عامٍّ."[9]

ويقدِّمُ مسعود صحراوي تعريفًا واضحًا للتداولية في كتابه (التداولية عند العلماء العرب) بأنَّها:« مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه ، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقاميَّة المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية ناجحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية[10]"،

ويقول أيضًا:" التداولية ليست علمًا لغويًا محضًا، بالمعنى التقليدي، علمًا يكتفي بوصف وتفسير البنى اللغوية، ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال[11]".

وقد عرّف (فانديك) التداولية بقوله :"التداولية بوصفها علمًا يُعنى بتحليل الأفعال اللغوية، ووظائف المنطوقات اللغوية، وسماتها في عملية الاتصال بوجه عام، انطلاقا من كون المنطوقات اللغوية تهدف إلى الإسهام في الاتصال، والتفاعل الاجتماعي[12]"

ويعرّفها الباحث "الجيلالي دلاش" « تخصّص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يُعنى من جهةٍ أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث[13] . ويعرِّفُها أحدُ العلماء بقوله:« هي دراسة اللغة التي تركز الانتباه على المستعملين وسياق استعمال اللغة بدلاً من التركيز على قواعد النحو»[14].

و«**اللِّسانيَّاتُ التداولية**» تخصُّصٌ لسانيٌّ يدرسُ العلاقةَ بين مُستخدمي الأدلَّةِ اللُّغويَّةِ (**المُرْسِلِ، المُرْسَلِ إليه**)، وعلاقاتِ التَّأثُّرِ والتَّأثير بينهما، في ضُوءِ ما يُنتجانه من تَحَاوُر مُتَّصِلٍ.

ومن المُصطلحاتِ المُهمَّةِ أيضًا في الدِّراساتِ التَّداوليَّةِ مصطلحُ «**علمُ الاستعمالِ**»، وهو«دراسةٌ لغويَّةٌ تُركِّزُ على المُستعملين لِلُّغةِ، وسياق استعمالها في عمليَّةِ التَّفسيرِ اللُّغويِّ ، بجوانبها المتنوّعةِ، وينقسم هذا العلم إلى عدَّةِ فروعٍ .

الفرعُ الأول: كيف يحتدُّ السِّياقُ المعنى القضوي الواحد بالنسبة لجملة في مُناسبةٍ مُعيَّنةٍ لاستعمال هذه الجملة، **الفرع الثاني : نظرية الفعل الكلامي** من علم الاستعمال، **والفرع الثالث** : نظرية التخاطب أو نظرية الاقتضاء.

ثانيا: نشأة التداولية

يعتبر الفيلسوف و السيميائي تشارلز سندرس بيرس من الأوائل الذين أحدثوا تطورا في المجال اللساني و الفلسفي .حيث "ارتبطت عنده التداولية بالمنطق ثم بالسيموطيقا" ، فقد ظهرت ملامح التداولية الأولى مع ظهور مقالة "كيف نجعل أفكارنا واضحة "عام 1878و قد تساءل بيرس متى يكون للفكرة معنى ،و درس الدليل و علل إدراكه بواسطة التفاعل الذي يحدث بين الذوات و النشاط السيميائي و قد حاول تطوير التجربة الإنسانية من خلال الأدلة ،و ربطها بالواقع الاجتماعي "إن الواقع المدلول عليه يفترض تجربة إنسانية مبنية لا على ما هو فردي بل على ما هو اجتماعي ، و قد اختلف مفهوم بيرس للتداولية بتطور مراحل فكره، إذ انطلق أولا بالتساؤل و البحث عن كيفية جعل أفكارنا أكثر وضوحا و انتهى إلى أن تصورنا لموضوع ما يقاس بالنتائج العلمية المترتبة عند بيرس من حيث أنها منهج متصل بالمنهج العلمي،اهتم بيرس بالإشارة اهتماما بالغا، و بحث عن الطرق التي بواسطتها يتم الاتصال بين أفراد، وجعلها نظرية،ليعتبر من خلال ذلك التداولية فرعا من السميائيات، و ذلك فيما كتبه وعبر عنه في تلخيصه لإطارها العام و ذلك،أن اللسانيات المتداولة تفترض كلا من الدراسة التركيبية والدلالية.

ب عند تشالز موريس: الذي اعتبر التداولية جزءا من السيمائية عند تمييزه لثلاثة فروع لهذه الأخيرة ، و هي علم التراكيب ، و علم الدلالة و التداولية ، و لقد نبه موريس إلى علاقة العلامة بمستعملها و طريقة توظيفها و أثرها في المتلقين ،و نبه إلى علاقة الرموز بمؤوليها ،و كل هذه الفروع مرتبطة بعضها ارتباطا وثيقا فالتداولية تدرس كيفية تفسير المتلقي للعلامة، قد نظر موريس إلى الأدلة و بحث كيفيات تأثيرها على المرسل إليه ، نظر إليها نظرة سلوكية .

-ج **مرحلة الاكتمال و النضج**

ا - **عند أوستين:** تأثرا بمن سبقه الذي اعتبر اللغة إنما تستخدم لتصف العالم و ما هي إلا أداة رمزية تشير إلى الواقع، و قد تصدى أوستين لهذه الأفكار، ولقد أنكر أن تكون الوظيفة الوحيدة للعبارات هي الإخبار ووصف حال الوقائع وصفا إما يكون صادقا أو كاذبا و أطلق عليه "المغالطة الوصفية" ليميز بين نوعين من العبارات التي تكون **أفعال منجزة فالأولى تخبر عن وقائع العالم الخارجي و يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب و الثانية تنجز بها أفعال فهي لا تحتمل صدقا أو كذبا، من خلال ما سبق يمكن القول إن أوستين وضع نظرية الأفعال الكلامية** ، و يمكن تلخيص فكره في **نقطتين اثنتين**

.**النقطة الأولى:** تتمثل في رفضه ثنائية الصدق و الكذب.

النقطة الثانية :تتمثل في إقراره بأن كل قول عبارة عن عمل ،**فنظرية أفعال الكلام** تؤكد على أن كل ملفوظ يخفي بعدا كلاميا أي الفعل الذي تشكله واقعة الكلام بالذات فنحن لما نستخدم أمرا مثلا، لا نتحدث بجملة تتضمن أمرا فحسب، بل تصدر أمرا و هنا نقوم بفعل .

ميز أوستين في نظريته بين نوعين من الأفعال اللغوية.

1-أفعال إخبارية : تتمثل في جملة الوقائع الخارجية التي يحكم عليها بمعيار الصدق و الكذب فقولنا مثلا أن الأرض تدور حول نفسها ،فهذا يمثل فعلا إخباريا يتأكد صدقه من خلال مطابقته للواقع ،أو كقولنا توفي ملك الجزائر فهو فعل إخباري كاذب لأنه مخالف لواقع الجزائر التي لا ملك لها بل لها رئيس

2- **أفعال أدائية (إنشائية):** و هي أفعال لا تصف الواقع و يحكم عليها بمعيار ثاني و هي النجاح و التوفيق أو الإخفاق، و قد نفى وصفها بالصدق أو الكذب، و أكد على أن هذه الأقوال قد تنجح أو قد تخفق، أو أنها تستجيب لمقتضى الحال أولا ،وصفة التوفيق لن تتحقق إلا بتحقق شروط معينة، و هي نوعان:

- **الشروط التكوينية :** و هي ضرورية لتحقيق الفعل الأدائي و تتمثل في:

1-وجود إجراء عرفي مقبول، أو أثر عرفي مقبول كالزواج و الطلاق.

2- أن يتضمن الإجراء نطق كلمات محددة من طرف أناس معيين في ظروف معينة ،مثلا في الزواج يشترط التلفظ بكلمات من مثل قول زوجني ابنتك، والرد زوجتك ابنتي على ما كان بيننا من مهر

3-أن يكون الناس مؤهلين لتنفيذ هذا الإجراء مثل الشروط الواجب توفرها في الزوجين كالبلوغ

4 - أن يكون التنفيذ صحيحا، ففي الطلاق مثلا لا يقع إلا بنطق كلمة الطلاق ،و إلا لما كان الطلاق، لأنه لم يؤد أداء صحيحا، فيجب الابتعاد عن استعمال الكلمات الغامضة.

5- أن يكون التنفيذ كاملا، فعقد البيع لا يتم إلا من خلال تأكيد كل من البائع و المشتري على المسألة بذكر الاستعمالات اللغوية المناسبة،

ب- الشروط القياسية: و هي ليست ضرورية مثل الشروط الملائمة لأن الفعل يتم و إن لم يوفر القول، لكن حضور هذه الشروط لازم للحكم على الفعل بالتوفيق أو عدمه و هذه الشروط تتلخص فيما يلي :. 1- ضرورة كون المشارك في الإجراء صادقا في أفكاره و مشاعره و نواياه، فإذا قلت لشخصك "أهنئك لهذه المناسبة السعيدة" و أنت في قرارة نفسك لا تشعر بذلك ،بل بنقيضه فقد أسأت أداء الفعل

.2.أن يلتزم القائل بما يقول فعلا :فإذا قلت لشخص أرحب بك ثم سلكت سلوكا غير مرحب فقد أسأت أداء الفعل،و لما اتضح لأوستين أن كثيرا من ألفعال الإخبارية تقوم بوظيفة الأفعال الأدائية برغم ما بذله أوستين من جهد في التمييز بين الأفعال الأدائية و الإخبارية، فقد ظل يرجع النظر في هذا التقسيم حتى تتبين له في

النهاية أن الحدود بين هذين النوعين من الأفعال لا تزال غير واضحة، **فمثلا قولنا " أنا عطشان " فهي في الحقيقة فعل إخباري، لكنه يؤدي وظيفة الأفعال الأدائية لأنها تؤدي معنى الطلب، أي أحضر لي كوب ماء،** يحتوي الفعل اللغوي على ثلاثة أفعال، تشكل كيانا واحدا، علما بأن هذه الأفعال الثلاثة يقع حدوثها في وقت و احد، فهي أفعال لا ينفصل جانب من جوانبها عن الآخر وهي:

1-الفعل اللفظي: وله عدة جوانب:

ا -**الفعل الصوتي** :و يتمثل في التلفظ، أي إنتاج أصوات لغوية مفهومة في تركيب إسنادي صحيح له معنى.

ب -**الفعل التبليغي** : الكلمة لها صورة صوتية و تنتمي إلى لغة محددة و تخضع لقواعد نحوية.

ج . **الفعل الخطابي** : و هو الذي يجعل لتلك الكلمات دلالات معينة.

2 -الفعل الإنجازي الغرضي:وهو ما يؤديه الفعل اللفظي و يصطلح عليه الجيلالي دلاش بالفعل الإنشائي و يقصد به ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال كالوعد والتحذير والأمر والنصح ... ،

3-الفعل التأثيري: و يقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع، أو المخاطب سواء أكان تأثيرا جسديا أم فكريا أم شعوريا.

الهوامش

1-ابن منظور، لسان العرب، ط1، م11، دار صادر، لبنان، 1990، مادة دول، ص 252.

2-الرازي، مختار الصحاح، تح: محمود خاطرو حمزة فتح الله ، دار البصائر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1987، مادة دول ،ص216.

3-الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق ، محمد باسل وعيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1998،1، ج1، ص303.

4- محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، منشورات باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2006م، ص176.

5- المرجع السابق ، ص174.

6-اللسانيات والدلالة، منذر عياشي، مركز النماء الحضاري، سوريا، 1996م، ص71.

7-محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، لنعمان بوقرة، ص174.

8-المقاربة التداولية،فرانسوا أرمينغو، تر:سعيد علوش، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان، 1986م، ص 62.

- Jef Verschueren : Understanding Pragmatics London 1999, p. 1-9

10-بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 10.

11- التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي،ص17.

12-المرجع السابق ، ص17.

13- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، لمحمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجديدة، القاهرة ، 2002م، ص 15.

14- ينظر: مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دلاش، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية،الجزائر، 1992م، ص:25.